« الجوار الأبيض » وزمن المرارة

بقلم محيي الدين محمد

تطرح هذه المجموعة النادرة سؤالا فنيا هاما : الى اي حد يمكن فهم الواقع بطريق رؤية غير موضوعية ، ومبينة على وهم التجربة وتكثيف الاحساس ؟.

على ان المشكلة في النهاية تبقى مشكلة التعبير الخصوصي عند الكاتب ، ولا يمكن طرح جواب عام .. فكمية الوهم المعطاة كبديل للعالم وللتجربة الخارجية ، تتفاوت بالنسبة لكل كاتب يتخذ هذا الخط التعبيري ، وبالنسبة لاقاصيص زكريا تامر ، تتجاوز الكمية المقدار المعقول لذلك .. ولكن .. كم هو في الحقيقة ، المقدار المعقول ، وكيف يضبط ؟.

هذه مشكلة اخرى لا يجاب عليها الا بطريقة ذاتية للغاية ، فالمهم هو كيفية التوصيل . كيفية تحوير الواقع بطريقة لا تمسخه ولا تحيله وهما كاملا ..

ان العالم عند زكريا تامر ، ليس هو المتعارف عليه . ان ذلك يتجاوز بشكل ما ، ليمسك بعالم اخر ، زئبقي في الظاهر ، ومتخم ضبابا . اما في الباطن فيظل هو هو ، عالمنا التعس الذي يبلونا بامراضه وفقره ومصائبه ..

اذن لم تكن الوسيلة لاظهار بؤس العالم احالة من خارج الى داخل ، اي انتقالا من الواقع الى الشعور ، بقدر ما كانت طلسمة للواقع الخارجي ، واغلاقا له ، للقفز من مجرد التعرف الى المظن ، الذي هو المسلك الطبيعي لكتاب القصة الاخرين ، الى الهزة الشعورية (١) والاخلاقية عن طريق ـ الى ـ داخل ـ ..

غير المتعرف عليه ، ليس هو المجهول .. ولكن .. المصبوب في قالب اخر ، ولذلك امكن اكتشاف عشرات الرموز في اقاصيص زكريا ، بدون ان تكسر الرموز حدة الوهم المعطى ، فالسكين رمز ، والقمر رمز ، والجنس رمز ، بل ان رؤية العالم تكاد ان تفصح عن رؤية كاملة للرموز ..! وكثرة الرموز الصغيرة تعتبر تكثيفا لحدة الازمة التي يعانيها جيل باكمله من خلال الجمود الضار للعادة ، والاسر المجتمعي والاخلاق ..

اذن . هو الشكل فحسب ، ما يعطي لاقاصيص هذه المجموعة سمة غائمة ، على حين يظل الداخل مربوطا الينا والى اوصابنا ، وسعاداتنا الصغيرة باكثر من الف رباط . وسوف يصبح هذا الغياب الظاهري للواقع ، طريقة جديدة من عشرات الطرق لابرازه وتأكيده ، فمما لا يحتمل الشك ان قصصنا في عشرات السنوات الماضية لم تكن ـ بتاثير من ترجمة الادب الروسي ، والفهم الخاطيء للواقع ـ الا عرضا خارجيا للفقر والفقراء .. لدرجةاننا صرنا مالكين لتيار من هذه القصص يمكن ان يسمى بتيار القصة المحولة .

واذن ، لابد من اجتياز المظهر ـ واجتيازه لا يعني اطراحه ـ للنفاذ الى ما هو حقيقي وثوري واخلاقي ... وهذه المسالة قد تعني بان اهتمام الكاتب يجب ان يوجه الى القضية الاخلاقية قبل كل شيء ، ثم يأتي المظهر الفني بعد ذلك ، وهذا بالطبع ايحاء خاطيء ، فهل يمكن فصل الجلد البشري عن الرمة الداخلية ، بشرط ان يبقى الانسان حيا .. ؟!

ان الصلة بين المظهر والمحتوى في العمل الفني اكثر دقة وارتباطا بين الجلد الانساني والاعضاء التي يحمل ، وهاهنا معادلة وضعت في الاساس لبيان اهمية المظهر الذي هو احتوائي في الحقيقة ، ثم هو بعد ايضا بنية العمل من حيث الفنية والجمالية ..

أ ـ العالم

« كانت المدينة مومسا عجوزا ذات وجه شاحب متعب لا يعرف الابتسام » « سأقتلك .. ذلك السيف قديم وله ضحية في كل ليلة . قلت : انه كمدينتي » « غرفة الرجل المتعب بلا ضوء ، صامتة ، سوداء ، علبة صغيرة من الحجر الرطب .. اعود اليها بلا حنين .. » « اني اعيش في هذا القبو .. العالم يجثم فوقي .. اني سأظل حتى النهاية في قعر المدينة .. »

يعرف الكاتب جيدا كيف يستخدم اللغة لاثارة القاريء الى اقصى حد . ولكن هذه الطريقة التأثيرية القوية المفعول ، تؤخر الى حد بعيد فرصة اكتشاف الجانب الانساني الخير ، والمناقض لهذا الجانب الذي عرض وحده ، وابرز خلال حشد من التعبيرات الاسيانة الغاضبة المتفجرة كمدا ..! صحيح ، لقد برزت بعض الصور الدالة على تطور المفاهيم ـ بشكل متأخر ـ « ربما عثرت اثناء طوافي على مدينتي التي احلم دوما . بامكان وجودها .. مدينة من نوع جديد غريب .. مدينة شنقت الجوع والكابة والضجر ..» « سأرحل في يوم لابد من مقدمة .. وسأترك خلفي مدينتي المكتظه بالجيف المتحركة .. »

ولكن هذا التطور الاخلاقي يبقى حتى النهاية فرح الرومانتيكي واماله . انه لا يمنح عطاء ارادبا ، بل هو هروبي اكثر منه فاعلا ، وها هنا بالذات تقع المأساة الفردية للفنان ..

اي عالم هو هذا الذي لا يعطي للفرد الا البؤس والعذاب والمرض والوحدة والمذلة والخبث والهوان .؟ اي عالم هذا الذي ينسي الطفولة ويرفض البراءة والاخلاق ، ويعطي للثروة حق السيادة والفعل والحكم، بل وحق القتل .؟

اذن يكون الجواب ضد هذا العالم : « سأهدم المعامل .. » !!

هذا الجواب المطروح لا يعني ان البطل يقاوم الالة ، بقدر ما يعني انه يقاوم اخلاق الالة . الاخلاق المستوردة التي حجبت اصالتنا العربية منذ المجتمع الاول . في تاريخنا فترة بلغت من الديمقراطية والطهر ، الى درجة ان الحاكم كان يقيل في ظل شجرة بين رعيته ، والى درجة ان حاكما اخر ضرب على ام راسه لانه لم يكن ديموقراطيا كفاية .. هذا الجانب من تاريخنا الذي اعطى العالم اشعاعا انسانيا جديدا ، ومفهوما اشتراكيا بين الانسان والسلطة والاخر ، ينقضه ، وينقض النتائج المترتبة عليه ، هذا التحول الى اخلاقية الالة التي لا تعرف الوفاء او الكرم او الديمقراطية التي عرفها المجتمع العربي الاسلامي قبل ذلك . اذن ، انها نكسة من الداخل ، في حين تتغير

---

(١) امكن لزكريا تامر ان يعطينا وهم الشعر ايضا ، بقدر ما اعطانا الالم في المشاركة ..

المظاهر الى احسن ..

وهذه آفة أحدثتها المفاهيم السطحية للحضارة الاوروبية . فخلال مائة السنة الماضية ، كانت قشور اوروبا تعبر البحر الابيض ، لتسكن ارضنا ، وكنا نوافق على ذلك ، لان القشور اعطتنا بهجة النتائج ، ولم تصحبها مرارة التفكير والاستنتاج والفعل .. كنا نستورد الكهرباء ، والراديو ، والهاتف ، والتلفزيون والسينما ورقصة الفالس ، وديوان كيتس وبودلير ، وغنائيات شوبرت وشومان ، ولم نكن لندرك ان تحويل نتائج الحضارة الاوروبية الى عصرنا المتخلف سوف يعطينا مرارة اليأس والاحساس بالهزيمة ، اذ كنا نتصور ان الدافع للتطور سوف يوجد بعد الاحتكاك بالنتائج ..

وكان هذا خطأ ضخما جدا ، اذ زادت اعوام الفرقة بيننا وبين الغرب ، لاننا بدأنا من نهاياتهم ، ولم نمنطق الدافع الى التطور والتقدم ..

وكان احرى بنا ان نقاوم التخلف اولا في ارضنا ، وان نقهر اوثاننا وان نحارب القيم التي عشنا فيقلبها آلافا من السنوات . كان احرى بنا ان ننقل التفكير البدائي الذي خلقه فينا المجتمع الزراعي ، الى تفكير راق ، بتطوير الارض الزراعية الى مصانع . كان ذلك اجدى واحرى واسلم . ولكن الحكام كانوا من طينة اخرى ، ترى غير ما نرى ، لان صلحها الدائم مع الاحتلال والاحتكار الداخلي كان يؤخر الى مدى بعيد ، فرصتنا في العمل لصالح وطننا ، ونشأت او انشئت فلسفات جديدة غرضها الاساسي هو تصغيرنا وتجميدنا وتثبيتنا في القديم والمتخلف والعاطفي ..

وهكذا انتقلت الينا اوراق الالة ، بدون ان ينتقل الفهم الشامل للحضارة التي انبثقت الالة عنها ، ولم تكن الالة سببا في ايجادها .. وفوجئنا باخلاق جديدة تناقض الشرف الشرقي المشع الذي ينبع من براءتنا ..

قشور الحضارة التي تحولت من الغرب اصبحت الهية الرجل العادي ، في حين اصبحت بالنسبة للمثقف مشنقته ومقصلته ، وهكذا اظهر التوتر والالم في وجه المثقف العربي ازاء هذه الموجة الجارفة من مظاهر الحضارة الاوروبية ، وكان هناك تياران : الاخذ عن الغرب . والعزلة ..

ووقعت فكرة الاخذ عن الغرب في محظور خطر ، وذلك هو عدم تقدير الزمن والتاريخ في نقل التراث الغربي ، اذ ترجمت مؤلفات في الفلسفة الوجودية وفي الماركسية والبرجماتية ، بدعوى حض الفكر العربي على التفكير ، والنتيجة بالطبع هي فقدان الادراك الاساسي في سبب نشوء هذه الفلسفات وارتباطها بالتاريخ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للانسان في الغرب ، ولذلك لاحظنا انكفاء سريعا عليها ، ثم نكوصا عنها سريعا ايضا ، لان الوجه البراق الذي اغرانا ، افصح عن انياب مهلكة ..

اما العزلة ، فان لم تكن وجها غريبا ممضا ، فهي على الاقل وجه ذاتي وصريح ، وهكذا كان على (الجواد الابيض) ان يرفض العالم ويرفض التقدم ، وان يسكن في الوحدة ، ومجرد السخرية من الانسان والوعي والتطور ..

انه سوف « يهدم المعامل » .. هكذا ...

ب ـ الكائنات

(ابو احمد) الرجل الموافق ، الذي لا تعني [نعم] بالنسبة له الا [نعم] الحصول ، و [لا] هي رفض الحصول ، واذن فالعالم كله بالنسبة لزكريا تامر هو عالم هذه الكائنات التي ترفض التعاون الا لمصلحة خاصة بها ، لمصحلة مادية في الغالب ، هذا العالم الغريب الذي ينعت رجلا معقولا تزج سيجارته بانه حشاش اصلي . العالم الذي يصيح « ما بالك متوقفا عن العمل ؟ اشتغل اشتغل ..» فبقدر انتاجك نعطيك خبزك . اما الحرية الفردية التي يتبناها الكاتب ، وهي حرية الرفض ، وحرية التشرد فلا تجد مكانا في العالم اساسه هو الصناعة والالة ، واذن : ما دامت حرية فوضويتي ضائعة ، فانا ارفض الالة والصناعة ـ السبب ـ واذهب لاتبول فوق اوراق مهملة ..

الاخر عند ذكريا تامر له وجهان ، احدهما البسيط الساذج الذي يحترم العلاقة بين الشاذ والطبيعي ، والثاني هو الاخر الذي يرفض اي علاقة لا تجر الى فائدة مادية . الاول هو تفاؤل الكاتب ، والثاني عذابه . وفي عذابه بالذات يكمن الجحيم الذي نطالع في « الجواد الابيض » ..

« انها امرأة فقيرة جميلة وديعة ملقاة الان على سرير رجل غريب ، يسحق جسدها العاري بينما تفكر هي بطفلها الذي ينتظر ، وبالنقود التي ستكون ملكا لها بعد قليل » « تقف السيارة بحذاء الرصيف يفتح بابها وتبتلع المرأة العاهرة التي تفضل اصحاب السيارات على المشاة امثالي ..»

ها هو عالم يصبح فيه حتى العمر موقوفا على الاثرياء .. اذن ، ماذا يفعل الرجل الفقير الذي لا يستطيع حتى ان يبيع كبرياءه وشرفه .؟ « احيانا اود ان يتحول كل الناس الى كلاب ، لا تتوقف لحظة عن النباح .. » هذا الاخر هو الوحش ، واحساس الكاتب هو الاحساس بكونه الفريسة ، بانه اللحم النيء الطري وسط مجموعة من الكلاب

وهاهنا يخالف الرمز ، رمزا اخر لفرانز كافكا في خاتمة روايته [المحاكمة] « ومات .. كأنه كلب » . التناقض موجود في طبيعة هذا الحيوان ، هنا على انه فريسة ، وهناك كمفترس ، ولكن رمز التطابق أعلى من رمز الافتراق ، فالاحساس العام للانسان بازياء العالم هو احساس بكونه قطعة اللحم وسط وحوش .

صاحب العمل مفترس . الام مفترسة . الاب مفترس . صاحب المقهى مفترس .. بل ان رمز (لوجي) قرد الغابات ، هو رمز للانسان الحبيس المأسور الذي قذف به من اعماق مملكته الى دنيا اباطرتها العظام ، آدميون ينزعون احشاءه ، ويملأون كيسه الجلدي قشا ، ثم يضعونه في المتاحف والابهاء . نفس المحتوى الاخلاقي لقصيدة ت . س . اليوت : الرجال الجوف ، والحقيقة ان هذا المفهوم ليس شرقيا اصيلا ، بل استورد في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، واصبح ابنا غير شرعي لنا ، لا يحمل ملامحنا ، ولا اخلاقنا ، فالمجتمع الاوروبي الذي حطمته اخلاق الالة وبترت عنه عواطفه واحلامه ، يلقي مر النقد والهجوم من شبان يلاحظون هذا الافتراق الخطير بين مثالية الانسان ، ومناقب الالة ، مما دعا (كولن ويلسون) في مؤلفاته الثلاثة الى محاولة طرح جواب لهذا الاشكال الضخم ، على ان يكون جوابا يعقد الصلح مع قلب الانسان ، وليس عقله ، وكانت النتيجة ان تقارب ويلسون مع الجواب المسيحي الذي طرحه اليوت ، ولهذا السبب بالذات يعتقد ويلسون ان اليوت هو المثقف الوحيد الذي يستاهل الاحترام .

في مؤلفه الثالث *The Stature of Man* يستند ويلسون الى كتابين هامين احدهما هو [الحشد المتوحد] لدافيد رايزمان ، والاخر هو [رجل المنظمة] لوليام هوايت ، ليقرر ان هناك ثلاثة نماذج الاول كان وقفا على مجتمعات العصور الوسطى (١) ، الانموذج الثاني فيعبر عنه المغامر احسن تعبير ، ذلك الرجل الذي يرفض العلاقات الاجتماعية الفاقدة المعنى ، ويذهب ، مثل (هاكلبري فين) على طوق خشبي ، سابحا على طول المسيسبي ، ليكتشف نيو اورليانز ، وفي الادب الامريكي نماذج عديدة مثل تورو . امرسون . وتيمان دانا . يو (٢) . اما القاد بالاخرين ، فهو الذي يهتم بما يقول الجيران عنه ، لا بما يطلب هو بذاته ، وهو الانموذج الذي عقد اتفاقا مع العالم ، ورضي بهذاالصلح واستكان له ..

وهكذا نلاحظ ان هذه النماذج التي تحتشد في قصص زكريا تامر تقارب هذه النماذج الى حد بعيد ، وهي النماذج التي يعلن عنها الادب الاوروبي الحديث لتكون ايماء لفقدان الغرب لقيمه الروحية ولان هذه النظرة مستوردة ، لم يستطع زكريا ان ينحرف الى الدين ،

---

(١) وهو يقابل الشخصية الموجودة في شرقنا العربي بعامة ..

(٢) ص ٧ Colin Wilson « The Stature of Man »

لان لديه مبرراته ، ولكنه انحرف الى العزلة .. وهي لا تفيد شيئا في ارض ساذجة ، رجالها اذكياء وساذجون ، ونساؤها محجبات وساذجات ، وقوانينها باطشة وساذجة ، وعدلها رهيب وساذج .. ولهذا احسبني اكتشف ظاهرة اصيلة في هذه المجموعة ، فالقصص التي قاومت اخلاق الالة ووضعيتها تخالف من حيث المستوى الفني والاخلاقي ، القصص الاخرى التي طرحت مشكلة فقر العربي وبؤسه . هناك زيف واضح ، ومحاولة لخلق مشكلة غير موجودة ، وهنا امانة وصدق وحقيقة . ان الاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية ، وهو اقوى البلاد العربية امكانيات ومقدرة وثروة ، لا يعد بلدا صناعيا للان ، ولم تصبح الالة فيه ، كما هي في الغرب دستورا ونبراسا ، فما زالت الزراعة هي الملامح الرئيسية ، بالرغم من المصانع المتعددة التي تقام في كل يوم ، وما زال الفلاحون ، القوة الرئيسية في البلاد .. فما بالنا بالاقليم الشمالي والاردن ولبنان والعراق .؟!

نصف الانسان المعروض لا يحمل وجهنا ، لانه نتاج حضارة اخرى، والنصف الاخر هو مشكلتنا الاساسية في الشرق العربي ، لانه نحن حقيقة .. وهاهنا عيب اخر من عيوب الحضارة الغربية التي زحفت الينا بوضعية القلق الوجودي والسأم والغثيان ، والمصطلحات الاخرى التي يستغرب حتى المثقف العربي وجودها ..

ان القلق الذي يعرضه زكريا هو قلق الحضارة الميكانيكية التي تتعذب من اجل الحصول على دراهم روحية وسط ازيز الالة وتجاهلها التام للانسان ، وهو يختلف قطعا عن ذلك القلق الميتافيزيقي الذي احس به باسكال وفاليري وكافكا وكامو ، اي ذلك القلق النابع من السؤال التجريدي : لماذا انا هنا .. ولست هناك .؟

هذا القلق الذي تثيره رؤية الغرابة والمصادفة والاستحالة ..

ان قلق زكريا منقول عن قلق كونستانتان جيورجيو وقلق اليوت : اي قلق البحث عن روحانية جديدة ، وليس مصادفة ان تجد هذه الدعوة عزوفا من الشبان العربي وان وجدت ترحيبا كاملا من الشباب الالماني والامريكي والانكليزي ، لان الاحساس به في الشرق العربي ليس معاشا على الاطلاق ، فالحرب هناك قد جددت الى حد بعيد ، هذا الطلب العادل بوجوب ابراز القوى الروحية لمواجهة الطغيان المادي الهائل ، ووجوب الوقوف ازاء الوحشية موقفا عاما وشاملا للاجهاز على شرائع الغابات وتنمية هذا الحس الانساني بالخير والسلام ، وكان التحول الغربي الى (الاوتوميشان) ـ هذه الحركة التي تبغي عزل الانسان وابقائه فاقدا لحيويته وقواه ـ يسهم بنصيب كبير في تدعيم الحركة الروحية وتقويتها ..

اما هنا ، في الشرق العربي ، فلم تكن الحرب تواجهنا بالفظاعة التي واجهت بها الغرب ، ولم تصنع البلاد بعد ، هذا التصنيع الهائل الذي يفقدنا روحيتنا ..

اذن،بعض كائنات زكريا تامر تعيش قلق الحضارة الاوروبية الميكانيكية ولا تعيش قلق الوجود الذي يعاني منه جيلنا العربي الراهن ..

واما الوجه الاخر للكائنات التي عرضها لنا (الجواد الابيض) فهي الوجه الذي نتعرف عليه بسرعة ، وبدون لحظة تأمل الى درجة ان تتابع الوجوه في الاقاصيص المقدمة ، يحيلنا الى تتابع وجودي ، حقيقي ومعاش في ارضنا : اي ان التطابق بين الحقيقة والمثال بارزالى حد يبعث الدهشة بالرغم من الخباء الرمزي الظاهر ..

انه جيل يعاني فقرا عاطفيا ، ونضبا ذهنيا ، واكراها تقليديا ،ومذلة معيشية مريعة ، بل ان تاريخه وتقاليده تسهم في فصل اماله عن جسده وارادته لتظل على الدوام ، امالا مستحيلة ولا طائل وراءها : الحرية ... انها خرافة ـ العيش الكريم .. استحالة ـ الاشتراكية ... انها وهم ..

وهكذا كان هذا الجيل يسير في الطريق الشاق مجرجرا في قدميه سلاسل العبودية التي تسلمها من اجداده وابائه ، مطرق الرأس الى الارض ، ولا يملك التفاتا الى عشرات الاشارات التي بامكانها ان تدله على الطريق : انه يعاني جهلا ومذلة حقيقية ، ولا شيء يمكن ان يقهر ذلك الا الثورة . الا التمرد .. الا الحرية ..

ها هو الانسان العربي الذي استطاعت هذه المجموعة ان تدل عليه ، وهو انسان التعاسة الذي يعاني الان ، اوصاب الفين من السنوات جاثمة فوق صدره الطري ، ومنشبة اظفارها في عنقه ...

ج ـ الاخلاق والقيم والانهيار

يعلن زكريا في [النهر ميت] : « اذار. نيسان . مارس .. الثلاثاء. الاربعاء . الخميس متى يتوقف هذا الركض المجنون ؟ سأوقف يوما في حفرة ، ويظل النهر حيا .. ليتني نهر .. » ليس هذا رغبة بالاتحاد في الطبيعة ، انه افصاح لاعفوي عن مطلب الخلود (١) .. اذ ، لماذا نموت في الحقيقة ؟ . والغريب ان هذه الحياة التي عاشت وفي فمها مرارة البحث عن الخبز والعيش النظيف ، وذاقت الم الجوع والتشرد والاحساس بالتطفل على مخلوقات تركب الكاديلاك ، وتأكل الفراخ المحمرة ، وتشرب السكوتش ويسكي .. هذه الحياة السوداء تطالب بالخلود !! لانها بالرغم من بؤس وجودها ، الا انها ترفض ان تموت وتخلي هذا العالم للاشجار والانهار الحية الخالدة . انها رغبة فينا ميتافيزيقية وعميقة ، لم يستطع الدين ان يطرح ازاءها جوابا منطقيا ومعقولا ، وما استطاع العلم ـ حتى الان ـ ان يجد لها حلا صائبا ..

في هذه القصة يحاور زكريا قضية لمسها الادب الاوروبي الميتافيزيقي وهو الاعلان عن هذا الاصرار الاخلاقي فينا برفض الطبيعي والمعاش والانتاج « لا زوجة لي .. لا اطفال .. لا اصدقاء .. لا مسرات . الارض مقبرة كبيرة . النهر قد يكون تعسا مثلي .. » وهذه الوحدة التي بدون اسم ، سوف تنجح ـ لا لان هذا السلوك موصل دائما ـ في كشف قيم جديدة للحياة « سأشتري الان خبزا ولحما وقنينة نبيذ .. الحياة جميلة » لان هذا الانقسام الذي حدث بين الطبيعة وبين الداخل، لم يطرح السؤال التقليدي : لماذا انا فقير ؟ بل طرح سؤالا اشد عمقا: لماذا انا موجود ؟!

اما (طارق) الذي يستعين به زكريا في خاتمة (النهر ميت)، فيعتبر جوابا للسؤال السابق : « ليس لك اية مدينة يا طارق .. احترقت السفن .. »

نعم .. ان عليك اذن ما دمت لم تملك الميلاد ، ولا تملك الوفاة ان تسير في المجهول ، وسط البراري العدوة ، بين البشر الساخطين عليك وعلى الدين الذي تحمل .. ان عليك اما ان تنطفيء ، واما ان تقاوم ارضا تمور النيران فيها حقدا وكرها لك . ولكن [طارق] التاريخ اخضع الارض الثائرة ، في حين ان طارقا المعاصر يتعذب في غربة هذه الارض هلما حتى الموت ..

لقد كانت الاستعانة بالتاريخ عنصرا ناجحا جدا في اضافة الواقع الى التجريد لاخفاء مسحة من النصوع ، والانفتاح على هذا القلب المغلق ، لقد احرق طارق سفنه وقال لجنوده : العدو امامكم ، والبحر خلفكم !.. اي ليس هناك خيار ، ولا مفر من التقدم ، وضرب العدو والتوغل في عالم اسبانيا الجديدة .

اما طارق القصة ، فقد احترقت سفنه منذ ميلاده ، وليس عليه الا ان يتوغل في العالم ،غير مالك في قبضة يده سوى موته ، بل ان بطولة طارق التاريخ لا يعرفها طارق الحديث ، لان الاول احرق سفنه بيديه ، اما الاخر فقد ولد واكتشف بعد ذلك ان سفنه قد احترقت منذ ازمنة بعيدة « انا نادم يا صديقي لاني حملت قبري في وقت جد مبكر .. » واذن : ليس الا التقدم . وسوف نعرف بعد ذلك ان زكريا يرفض الانتحار ،ويهرب من الموت ويخشاه تماما ..

القدوم الى العالم في مثل الظروف التي يعاني منها جيلنا العربي الراهن ، تخلق كراهية الاخرين ، والعزلة ، والرغبة في التدمير ،

---

(١) حاولت ان اتجنب المعطى الاولى للفترة ، وهو مراقبة التكرار والالية والعادة ، لان الفترة بكاملها مذكورة ـ بالنص ـ في رواية (الغريب) لالبير كامو ..

والشذوذ الاخلاقي ، وكافة المصائب التي نلاحظها في طوفان حياتنا .

« قلت : انا احب كل التجارب الجديدة » « انا اكره جدي ، فلو زوج امي من رجل غني لما ذقت طعم الشقاء » « قد اكون شتمت جدي وشتمت بضراوة عالما لا املك فيه شيئا » « ليتني قطيع من المدى المتوحشة المنغرسة في قلب مدينة لا تعطي اولادها سوى الجوع والتشرد والكابة» « اني سأقول لزوجها بصراحة : العدالة فوق الاشخاص .. انت تمتعت بمباهج تلك المرأة طوال سنين .. والان حان دوري انا المعذب لكي اعرف طعم اللذة والسعادة » « انا عامل مسكين لا ابتسم » « انسى رائحة لحم العامل المحترق الذي تساقط عليه الحديد الناري المصهور المندلق من البوتقة التي افلتت فجأة من الايدي التي تحملها .. تلك الرائحة هي العالم » « لا شيء في داخلي سوى بعض العناكب والقبور المهجورة » « فانا شاب احمق عديم الفائدة » « لماذا اعيش ما دام ليس هناك ما اعيش لاجله ولا فائدة مطلقا من وجودي .. لماذا لا انتحر(١)»

كل هذه النصوص ، والكلمات المريضة الغاضبة ، يعاني من واقعها جيلنا العربي ، لانه جيل المرارة . لانه الجيل الذي عرف الان فقط ما هو ماضيه .. لان ادراكنا لتاريخنا القديم لم ينفتح في القرون الماضية بسبب الضغوط التي كانت تباشرها سلطة اقسى وافظع من السلطات الموجودة .. واستطعنا فجأة ان نفتح كوة كبيرة على الماسي العديدة التي عاشها اجدادنا في ظل ظروف باهظة للغاية ..

لقد استمر الاحتلال العثماني لبلادنا مدة طويلة ، استطاع خلالها ان يمتص رحيقنا وامكانياتنا ومواردنا ، كما يسل الرحيق عن القصب، واحتلت بريطانيا وفرنسا ارضنا بعد ترحيل تركيا ، واستمرت في عملية تدمير الشرق العربي اقتصاديا وحضاريا وفكريا وسياسيا وبعد ان استقلت بعض البلدان العربية التي بدأت فورا في اعادة بناء الامة العربية المنخوبة من الداخل ، فوجئنا بتاريخنا كله ينهار تحت اقدامنا ، عريانا ومكشوفا : تاريخ التوسع الاسلامي . تاريخ المهازل العباسية . تاريخ الخلافة التركية المحتلة . تاريخ الصراعات الفكرية القديمة . تاريخ الاغتصابات السافلة التي سوف يذكرها ويوضحها قرن تال في مستقبلنا ، فما زالت الرغبة بالافصاح وحرية الكلام ، يقابلها التهديد بالموت والسجن والتشهير والتعذيب .. واملنا ان ياتي الوقت الذي تسود فيه حرية التعبير ، وحرية الاعتقاد ، ليقول الصامتون ما يعرفون عن حاضرنا وماضينا ..

كانت فترة الاحتلال التي امضاها شرقنا العربي ، عاملا قويا في دفن مطالب العربي ، وساعدها في ذلك ، التقاليد القديمة التي ورثناها عن اسلافنا الاقربين ـ ولو كانت خلال الاسلام الحقيقية فينا ، لتعلمنا ان نثور ونضرب ونموت ـ اقول [خلال] ولا اقول الاسلام ـ فقد كان الاسلام الحديث منقسما الى اسلامين . اسلام القرآن ، واسلام العامة ، وكان الاخير ـ للاسف ـ هو السائد ، وما زال الايمان بالخرافة ورفض روح العلم والعقل والمنطق ، والتواكل ، وترك المصائر بيد الله والسلطة الحاكمة ، والتغني بالمذلة الحقيقية امام القدرية لنيل رضوان الله .. ما زال كل ذلك قائما حتى الان وكانت السلطة بمعاونة الاحتلال ، تموت طربا وسرورا لهذا الاتفاق الرائع الذي حل بينها وبين طلباتها ، وبين الناس ، فكانت تسهم ببث هذه التعاليم في قلوب العرب وتنشرها في كافة المجتمعات وبكافة الطرق ..

واصبحت الظروف الحياتية للجيل العربي الراهن في منتهى الصعوبة نظرا لهذه التركة الشامخة الموحلة ، وتكررت النماذج في الوطن كله من العراق حتى مراكش ، واصيبت الاخلاق بالانهيار ، لدرجة ان الجيل الشاب اصبح يرفض اخلاقه القديمة والاخلاق الاوروبية معا ، وبدأ يتمسك بالحركات التي تدعي الحرية الفردية وتعلن عنها ، فها هنا بالذات يمكن للشاب ان يجد المبررات لكل ما يفعل ، وكان الجواب حاضرا : لماذا انت لا أخلاقي ؟

لانني وجودي او سيريالي او .. او ..

واصيب الجيل كله بخيبة امل ، مرجعها الى اليأس الحياتي الذي يعيشه ! فمطالبه محددة تماما : الحرية والاشتراكية ، وهما معكوس الواقع في معظم بلدان الشرق العربي

الدكتاتورية والاقطاعية ..

ولكن الامل عند زكريا تامر ، يفصح عن رغبة عميقة في مصالحة العالم مرة اخرى « سأزرع الامل في دمي ، وانتظر بلهفة ، الشمس السعيدة التي لا بد ان تشرق في يوم ما ..

وستهب لكل قلب بهجة دائمة حقيقية .. وعندئذ لن ينبح في قلبي اي احساس حاقد لئيم اسود .. » .. بيد انه امل يفصح عن توق ومغامرة ، ولا يفصح عن رؤية وفعل ..

د ـ حكمة الرجل الاخر ...

(الهو) باستمرار ، حلم الراوي واماله ، انه ليس ابا احمد او سلمان او الحاج فضل . انه الرغبة . المغامرة .. التوق الى المجهول مجسدا في رجل او انثى او شمبانزي .

« انا في النهار بائع اقمشة وفي الليل بحار مغامر ..»

واحيانا يكون الاخر سيد الحكمة : الرجل الذي يفهم كل شيء ويدرك كل شيء : « عندما تكون جيوبك مليئة بالنقود .. تصبح المدينة ملكا لك . » « اسكت .. متى اصبحت تفهم في السياسة .؟ ـ ليتنا نستطيع ان نحيا بدون خبز ـ كل النساء موسمات . » « احن راسك اذا اردت ان تعيش سعيدا ، فالرأس المرفوع يشقي حامله »

ان الاخر هو توق كاذب ، يتمنى الكاتب ان يكون : الاخر الذي نراه ولا نشعر به من داخل السحنة التي تظهر لنا فرحها وابتسامها . هذا الانموذج الواثق من نفسه والذي يلقي بالحكمة كأنه آله ، هو مني بطل الاقاصيص ، بيد أن الامنية التي يود ان يحصل عليها الكاتب ممثلة في حكمة الاخر ، تتشابه الى درجة بعيدة مع احلامه هو ، وهاهنا يختلط الاخر بزكريا تامر ، ويصبحان عجينة واحدة .. لدرجة ان تعبيرات الاخر تسقط في اكتسابه مع تعبيرات الفنان ، فتفقد الاقاصيص عنصر التوازن الذي كان يمكن خلقه بتصارع فكرتين او رغبتين متناقضتين تماما ، لكل منهما اغراؤها ومنطقها . كان يمكن لابي احمد ان يكون العاقل او الاتفاقي ازاء رغبة بطل القصة في هدم المعامل ، وهدم الحضارة ، ولكنه ينساق سريعا ليحمل الاخلاص في صورة زجاجة عرق توزع على كل رجل يوميا ، لقتل المذلة والهوان والفقر .

ان ذلك يعني ان كل شخصيات زكريا تامر تتكلم باسمه ، وتعلن عن حججه ، وتحمل اسلحته ، وذلك خطأ فني وقع فيه الكاتب ، وكأنني به غير مستطيع ان يقنع القارىء بمنطق الابطال الغريب ، فاختار ان يسعف منطق البطل بموافقة الاخرين ، وينقله من الاستحالة الى الامكان. ان عنصر الموافقة على الهرب والسلوك القبيح والانهزامي والشذوذ ، متفق عليه من كائنات زكريا تامر جميعا ، فكانهم يفحصون عن مجتمع مكون كله من نسخ متكررة لبطل يتيم واحد ..

البطل معروض دائما من الداخل [الروي الاول] على حين يقنع زكريا بعرض اشارته من خارج الاخرين : اي ان هناك باستمرار ، تأملا داخليا ، من خلال الانا ، وعرضا خارجيا من خلال الاخر . اي ان اتفاقا قديم تم بين الانا والهو ، على ان يختص الانا بعرض انعكاس العالم في ـ داخل ، وعلى ان يعرض الهو العالم من ـ خارج ، وقد امكن لهذا العالم المنظور اليه مرة بالشعور ، وبالاعين مرة اخرى ، ان يفلت

ـ تتمة على الصفحة ٧٧ ـ

---

(١) سوف نلاحظ فيما بعد ان هذه الرغبة بالانتحار هي رغبة كاذبة وملفقة،وتماثل بالضبط بعض الكتاب الاعلانيين بالتوقف عن الكتابة لمدة معينة ... ثم تراجعوا .! ذلك ان الرغبة لم تكن جدية . ان التوقف عن الكتابة [كارثر ميلر] مثلا لا يعلن عن ذلك . انه ببساطة: يتوقف ...

الجواد الابيض

ـ التتمة من الصفحة ٢٧ ـ

المجموعة من الوقوع في المتكرر والاعادة .. (١)

*

هـ ـ التعبير

مع سيريالية العصور المعروضة ، وغموضها ، تتفتح بعض الرموز في طواعية ويسر ، فالسكين في (الاغنية الزرقاء الخشنة) هي الكراهية التي تخفي العلاقة المقطوعة بين الفنان والعالم ، حتى لو تخلى السكين عن رمزه واصبح بضاعة يساوم عليها بكوب شاي ..

والسجائر تعني رباط الصداقة التي تهب المشاركة والعطف والايناس . والغريب ان هذه الرموز التفاؤلية يختص بها الجماد وليس البشر « اذا كنت تريد ان يكون الناس سعداء ، فوزع عليهم من سجائري »

يعتمد زكريا في قصة (القبو) على التداعي المعكوس ، اي ان الجملة تفجر تداعيا يناقض مفهوم الجملة الاولى : [« العالم كله كئيب » الرد .. « ما اجمل كلمة فخذ » « ليتني كنت غرابا »] وقد امكن لهذه الطريقة ان تخلق ميزانا في مخيلة القارىء يزن به العالم المحتمل والعالم الموجود . اما الاخلاقية فيتركها زكريا للقارىء ، وحسبه ان لعن العالم والوجود والحياة ...

اذ لا يمكن ان يصير الكاتب حياديا ، ان له نظرة خاصة يود ان يطبع الكون بها ، ولا مجال للقول بان الكاتب يفرض اخلاقيته على القاريء : انه يمنحه عطاء فوجيء به اذ على القارىء نفسه يقع عبء تحويل هذا العطاء الى اخلاقية خاصة ..

في [النجوم فوق الغابة] جملة وضاءة :

ـ لوجي .. (خذني الى غابة) ..

ـ سنهرب معا في احد الايام ..

انها تذكر بدعوة (بارك) الحارة والمسكينة « خبئني في طائرة الى مراكش » (٢) وهي بالطبع عزوف نادر عن الضغوط ، ورغبة عنيفة بالحرية والهرب من عالم حقيقي وصلب ، وبلا احلام .. ولا يملك الطفل في قصة زكريا الا ان يحلم بالفرار العظيم ، على اثر سماعه جملة نادرة كهذه :

« الاشجار هناك طويلة جدا حتى ان رؤوسها تتحدث ليلا مع النجوم .. » ومن قديم كانت الرغبة في الرحيل امنية تملأ على الكاتب حسه ومشاعره . الرحيل التجريدي الذي اعلن عنه الرومانتيكيون ، وليس رحيل همنجواي الى كينيا ، او رحيل سومرست موم الى الريفييرا ، وباوند الى الساحل الايطالي المذهب بالشمس .. الرحيل الذي يعلن عنه (روبرت) وهو يموت في مسرحية اونيل [ما وراء الافق] « انها بداية حرة .. بداية رحلتي .. لقد كسبت لرحلتي حق الانطلاق وراء الافق .. »

الرحيل الذي اعلن عنه (كامو) في [وقفة وهران] ، والذي بهره الى درجة ان صور جزيرته في قالب مطلق : غدا .. تبحر السفن الى جزر بعيدة تغمرها الشمس .. انه سحر غامض وملح ، الى استنشاق المجهول : هذا الطعم البري العجيب ، وهو طعم حقيقي ايضا ، لا يمكن للفنان ان يتخلى عنه ، والا اصيب بمرض النقل عن الواقع ، وبهتت رؤاه ...

ان القصة الاولى من هذه المجموعة (الاغنية الزرقاء الخشنة) تحمل تعبيرات مثقلة بالغموض والسيريالية « حبيبتي اميمة كانت حزينة وجميلة كمومس جسدها قمر ابيض خجول .. تخنق ضحكته الغرف المقفلة برجال ولدوا في ابنية من ذهب » وتذكر هذه الفقرة بشطر غامض من [لويس ماكنيس] « الوجوه الغاضبة لرجال قطعوا بالمقصات وحشروا في المرايا .. » وتذكر « لست دون جوان .. لا املك سيارة ولا بناية شامخة (١) » باليوت في [غزلية ج الفرد بروفروك] « كلا : لست الامير هاملت ، ولم يكتب لي ان اكونه » هذا هو الرفض العادل ، للامنية في منتهى حلاوتها ، انه ليس تمييزا وايضاحا لماهية الكاتب او وجوده ، بقدر ما هي فقدان للمزايا التي يحسبها الجيل قدر حياته .. : انا لست دون جوان ، لا املك مزاياه ، وبرغم ذلك فهانذا احيا واتعذب ..

(صهيل الجواد الابيض) تمثل لوحة تجريدية حديثة بالوانها وخطوطها الغريبة التي توقعنا في الالتباس ، فما ندري اهذا اللون الاحمر يمثل وردة فارسية ام هو دم متخثر ام هو مجرد ثورة !

تأملوا هذه الصورة « الانهار القرمزية تنتحب بصمت في حقولي الجرداء » على ان بقية الاستطراد الحلمي الذي ينتبه اليه البطل له دلالة اخرى ، فالصور المتتالية تخدم القاع العام تماما : كل صورة تنقض السابقة ، الاولى دعوة الى الحياة ، والثانية شكل منفر يهدم الصورة الاولى ، ويفجر التناقض الحيوي المجهول الاسباب ، ليحيى من جديد هذه الرغبة المجنونة في فض استار العالم ، ومعرفة الجواب على البؤس الذي يقدم . ان الصور ممتازة لانها تعلن عن عالم الكاتب الاخلاقي الذي يغطيه بالتجريد ، ويرفض فيه الامل على انه متعة ذهنية محضة ..

في قصة (ابتسم يا وجهها المتعب) يقول : « ماذا سأخسر لو عدت الى العالم ؟ » وذلك منتهى ما يؤدي اليه الفحص الذاتي للعالم من رؤية فردية . ان الدنيا كلها بمخلوقاتها وجمادها وقوانينها وهيبتها وعظمتها تصبح مجرد شيء يمتلكه الفرد . تصبح الهية : ماذا سأخسر (انا) لو عدت الى العالم .؟؟ والطبيعي ان يطرح السؤال هكذا : ماذا يكسب العالم (مني) لو عدت اليه ؟؟ ولكن ذلك هو جواب المتفائل . الانسان الراضي الذي عقد اتفاقا مع العالم ، او فجر خلافا ، ولكن الكاتب يتخلى عن الخلاف والاتفاق . انه يعلن مجرد الرفض ، الذي يعتبره القيمة الوحيدة بالنسبة له ... في (الخبز والكآبة) مقطع في غاية الغرابة ، فهذا الشخص المغمور ، والذي يجرب كل اللذات ، يستنكر حتى القرف ، عملية شذوذ جنسي ، تمت مقدماتها امامه ، فيبصق عى الارض بازدراء ، وهذه المظاهرة النفسية تدل على ان المختل عاطفيا ، والذي يوافق على شذوذه هو ، يرفض شذوذ الاخر ، وينمي اخلاقيته في هذه اللحظة ـ متحاشيا ذلك المراقب اليقظ في اعماق نفسه ـ على اساس ان المواجهة لن تتم ابدا بين ذاته الشاذة ، وبين ضميره ..

والغريب ان هذا الفنان المريض الذي يصق على شذوذ الرجل الاخر ، يحاول ان يغوي بائعة يانصيب طفلة ، في الصحيفة التالية راسا من نفس القصة ، بالذهاب معه الى البيت « لن اشتري ... لكني سأعطيك خمس ليرات اذا ذهبت معي الى البيت » وهكذا ، يفضي التناقض بين المسلك الذاتي وبين الرقابة الداخلية على

---

(١) مفهوم البطل عند زكريا تامر ، يماثل الى حد بعيد مفهوم البطل في كتاب كولن ويلسون الثالث (ابعاد الانسان) :« فكرة البطل عن شخص يحتاج التوسع ، يحتاج حقلا اكبر لنشاطاته . انه من لا يستطيع ان يقنع بحالته الراهنة . الرجل الذي تصبح لديه فكرة الحرية ، النقيض لحياته الحاضرة . واللابطل هو الرجل الذي يوافق ، الرجل الانسجامي .. » ص ٧٥

(٢) (ارض البشر) انطوان دوسانت اكزوبيري (مطبوعات الكاتب المصري) المصري) .

(١) يقارن هذا برغبة جاتسبي العنيفة في زاوية سكوت فيتزجيرالد [جاتسبي العظيم] حين يشاهد فتاة رائعة تركب عربة جاجوار مع فتى انيق ... ان الرغبة بالحصول على مثل هذه الحياة الرغدة ، هي رمز للاكتواء الناري في داخل الشخصية ، واحساس بالحرقة ازاء ملكية الاخرين الى درجة ان الفتاة والعربية يصبحان رمزا للامنية ، لا الامل ذاته ..

سلوك الاخرين ، الى التزييف ، والى اطراح القيم جميعا . ان البطل [يمثل] الاخلاقي ولا يكونه ، لانه فاقد للحرية الحقيقية التي تعيره فيما موحدة وغير قابلة للتناقض ..

*

و ـ حلم الرومانتيكي ..

كل فنان يحلم بعالم رائع وجميل ومثالي ، الى درجة ان فكرة الغياب بالنسبة له ، ليست انتقالا من ارض الى اخرى ، بقدر ما هي تحول من طبيعة كاملة لاخرى .

منذ ان كتب افلاطون (مدينته الفاضلة) مرت الحضارة بعشرات المدن المشابهة في مخيلات المفكرين والفلاسفة والحالمين ، وقد تطورت هذه المدن ـ بالتطور المادي والفكري للعالم ـ من مدن محض اخلاقية، الى مدن تنزع عنها الاخلاق لتحيا بمآثر الالة والميكانيكا كما ابرز لنا [هكسلي] في (العالم الطريف) ... الى مدن تحلم بالانسان الفاضل الذي يملك اخلاقيته حسب وضعه المادي ، الى مدن خرافية ومستحيلة كيوتوبيا (توماس مور) ومدينة الشمس (لكامبانيلا) . هذه الرغبة الحارقة التي تنتاب الفئة الممتازة من البشر ، وتدفعهم دفعا الى الاحلام والى اقتناص المجهول ، هي رفض سام لهذا الواقع المر الذي يحياه الانسان ، ويتنفسه ، وتطلب راق لعالم اخر يملك من الحب والسلام اكثر مما يملك من عفن ولصوصية ..

وكانت الوسائل لتغيير البشرية قاصرة على المحاضرات والخيال ومنابر الكنائس والخطب الملة لواعظين كاذبين ... وكان اتفه شجار على قرش واحد ، يعطي الدلالة على ان الانسان مهتم في الواقع بسعادته الخاصة اكثر من اهتمامه بالخلود السماوي ..

ومن اجل ذلك حاول الفنان الاكثر حساسية ان يهرب من هذه المحاولة المريرة لتغيير الاخر ، باستبدال الكون جميعا ، والفرار الى جزيرة غامضة وبعيدة ..

« فكانني ابعدت دفعة واحدة جبالا شامخة بمهابة ، ومدنا وديعة وبحارا بلا شواطيء وادغالا عذراء مغمورة بشعاع من شمس حمراء غاربة .. »

« آه لا شيء في العالم اجمل من البحر والسفر والتنقل الدائم. الشراع يرفرف وانت تقف مشدود القامة مرفوع الراس تداعب الريح الرطبة خصلات شعرك وتنفذ الى اعماقك رائحة الملح وهدير الموج... ستضحك بسرور وحشي فكل الاحزان خلفتها وراءك .. وعما قريب ستصل الى مرفأ لم تطأه قدماك من قبل .. »

« ربما عثرت اثناء طوافي على مدينتي التي احلم دوما بامكان وجودها ... مدينة من نوع جديد غريب .. مدينة شنقت الجوع والكآبة والضجر ... »

انها رغبة فقط . حلم استوائي ، ولكنه بعيد بعد الثريا ، وحتى لو امكن للفنان ان يجد جزيرته هذه ، فلن يكف عن السخط والقلق، لانه يحمل هذين العنصرين في قلبه ، كما يحمل عزلته معه الى اي مكان، فيتصور ان العزلة والوحدة مقترنان بغيابه الجسدي عن الاخرين ..

ان الفنان لايساوي شيئا اذا كان مرتدا ، فمن هذا الالم الحارق. من هذا الغذاء الشيطاني اللاهب ، يتفجر الينبوع الانساني الذي يغذى الامل ، ويغذي الاقتران بالاخرين ، ويغذي امكانية تغيير الواقع ، والتعجيل بتطويره ..

والفرار لا يهب النفس ، ولا الاخرين شيئا . قد يستطيع الفرار ان يعطي سكينة النفس لعام او اثنين ، ، ولكنه لا يمنح ذلك الى الابد.. وعندها ، سوف يرتد الحقد مرويا من ذلك العطش النادر ، والكامن في داخلنا ، ليتضاعف ويصبح حقدين ، احدهما ضد العالم ، والاخر ضد انفسنا ، وذلك عندما نكتشف ان الهرب لم يعطنا شيئا .. واذن، فالفرار مستحيل ـ عمليا ـ ولا بد إن يكون رمز الفرار مطبوعا في قلوب الناس ، كامل وبشارة ..

ان هذه الحركة الرومانتيكية ، تنبيء عن مقدار البؤس الذي يعيشه جيلنا ، ومقدار الالم والحرقة والاسى الذي ينظر بها هذا الجيل الى ماضيه وحاضره ، بازاء الوجود الباطش للحضارات الغربية . انه موقف غير عادل : هناك تاريخ بأكمله يسند ظهر الغرب ويشرفه ، وهنا تاريخ بأكمله يقف ضد الجيل الحديث ويحاول الايقاع به : لقد فتح عينيه فلم يجد جسده صغيرا ، امامه فرصة ان يشب قليلا قليلا وان تكبر مداركه بكبر جسمه ، بل وجد فجأة ان جسده هو جسد رجل كبير ، في حين ان مداركه لم تتعد مدارك الاطفال .. وهكذا كان على هذا الجيل اما ان يعمل جهده المضاعف ليل نهار كيما يلحق بالحضارة ، واما ان يتحول الى العزلة والانهيار ..

وللاسف ، صاحب التيار الثاني ، نزعة اوروبية حديثة قام بها شبان ساخطون في انكلترا مثل انجوس ويلسون . برنارد ساندز . كنجزلي اميس ، جون وين ، جون برين ، جون أوسبورن، بيل هوبكنز ، وحركة سميت في الولايات المتحدة بحركة المتمردين ، وعلى راسها جيمس جونز ، قامت بالهجوم على القيم الازلية للبشر ، وناهضت حتى الموت قيمهم المادية الحديثة ، وطالبت ان يكون الفرد معيارا لكل القيم ، وكان ذلك يعني ان على اوروبا ان تعيد النظر في دينها واخلاقها وسلطتها وتشريعها .

وجدت حركة العزلة في الشرق العربي هذه التيارات الفكرية جاهزة وملبية لمساعدتها ، فانكفأت عليها بدون بحث حتى الرغبة ، وظهر عندنا شباب يفكرون على النحو التالي : ما فائدة الحضارة ؟ ما فائدة الاخلاق ؟ لماذا لا اتزوج اختي ؟.. وهكذا انقلبت زهرة التاريخ الاوروبي الى فكرنا ، نحن الذين نحتاج جذورا اكثر مما نحتاج الزهور ...

ابسط ملاحظة في تاريخ ظهور هذه الحركات الساخطة في انكلترا وأمريكا .. ثم في المانيا الغربية بعد ذلك ، تؤكد ان الحرب قد زعزعت العقائد في القيم القديمة السلامية عند الانسان الغربي ، بل وزعزعت النظرة الى المسيحية ذاتها ، الى درجة ان هذه الحركات الساخطة يمكن ان تنبيء عن الحاجة الى روحية جديدة، والعطش الشديد الى قيم اخلاقية فردية ، لاتطمس الذات بدعوى النظر الى المجتمع او الدولة .. انها حركة تقاوم الاشتراكية الغربية التي تريد ان تحطم الفرد على اساس العناية بالمجموع ..

اما في شرقنا العربي فما زالت الدجاجة تبيض لنا قيما روحية مجددة ، نغتذي بها كل يوم ، أي ان فقرنا ليس فقرا روحيا على الاطلاق انه فقر حركي . فقر مادي . فقر عمل وارادة وتخطيط وحرية ..

ان مطالبنا واضحة ، ولعله وضوح المطالب مايبعد ذهن المثقف العربي عن الالتزام بها ، ويدفع به بعيدا الى مطالب الغربي التي تبدو له معمقة وجليلة الى الحد الاقصى ..

وها هنا يتسنى لنا ان نراجع الازمة التي وقع فيها زكريا مع ازمة جيله بكاملها ، ونرثي لهذا السقوط في حفرة لم تعد لنا ابدا : انه يشبه لدي حيوانا نباتيا ، يغريه لحم طري بالاقتراب من الفخ المرصود لحيوان اخر ، فيسقط هو فيه لانه ارعن وطويل الانف ..

ان حضارتنا تشكو من عائقين لا ثالث لهما ، أولهما الدكتاتورية بكامل صورها ، من سياسية الى عقائدية الى تقليدية الى دينية ، والثانية هي حكم الملوك والالهة الاقطاعيين ، وذلك يستتبع ان يكون كفاحنا مركزا في كلمتين اثنتين : الحرية والاشتراكية ..

انا لا ادعو كاتب القصة الى ان يلتزم بالدفاع الحرفي عن هاتين القضيتين ، بل ادعوه الى ان يفحص بمزيد من الوعي ، واقعنا العربي وقضايانا الحقيقية على ضوء هذه المسلمة الواضحة . لقد كشف عن وحدتنا وعن عرينا ، وكان صادقا ، ولكن كشفه عن الانسان بازاء الالهة كان كشفا تنقصه الدقة والاحاطة والصدق ..

ي ـ الهلع من الموت ..

والى جانب هذه الرغبة بالفرار ، تكمن الحالة المرافقة وهي الرغبة بالانتحار ..

ولو كانت هذه الرغبة حقيقية ، لامكننا ان نتعرف الى حقيقية الاسى والالم ، اما والرغبة مزيفة ، والانتحار هوى شكلي محض ، فهذا يؤكد

لدينا ان نصف المأساة غير مدفونة في قلب الكاتب ، وانها في الحقيقة مستوردة تمامـــا ..

ان هناك ما يسمى بالهلع من الموت ، مما ينقض الى حد كبير هذه الدعوة الى الانتحار ، والتي يتبناها الكاتب احيانا : « وامتنعت عـــن التدخين طيلة اسبوع ، واشتريت بالنقود التي اقتصدتها موسى نصلها ابيض بارد .. هكذا سأموت .. طعنة واحدة .. ويجب ان تكون قويـة شرسة..في القلب تماما..وعندئذ سينتهي كل شيء ..» ب ـ «وجلست على الكرسي المريح ، وأسلمت رأسي الى مسنده ، وراحت الفرشـاة الناعمة تتمرغ على وجهي مغطية اياه بطبقة كثيفة من رغوة الصابون ، ثم بدأت الموسى الحادة تزحف ببطء فوق الجلد حتى وصلت الى عنقي ؟ وفكرت هلعا : حركة فجائية من رأسي الى الامام وتنفرس شفرة الموسى في حنجرتي التي بلغتها في تلك اللحظة منتزعة شهقة فزعة .. »

النص الاول ، تفكير طفولي في الانتحار ، فمن يمكنه ان يزعم بان هذه النية الساذجة في اقتصاد القروش لشراء موسى ثم الانتحار بها ، نية عملية وحقيقية ؟ ان المنتحر الحقيقي لايفعل ذلك ابدا . لايفكر ابـــدا بهذه الكيفية ، انه يلقي بنفسه من الدور الثامن ، او من فوق جسر ، او تحت الترام ، او يشرب سما في التو واللحظة ، ولكنه لايجلس هادئا هكذا ثم يخرج ورقا وقلما ـمثلا ـ لاجراء حساب عن كيفية اقتصـــاد ثمن موسى او مسدس ..! هذا تفكير ساذج تماما ، ولكن له دلالة فـــي منتهى الاهمية : ان الرغبة بالانتحار ليست حقيقية ، لان الاسى الصادر عن القلب أسى مزيف ، واكتواء مصدر ..

فلو كانت العذابات التي يحياها البطل حقيقية ، ما صدع رؤوسنا كلاما عن نيته في الانتحار ، ولقتل نفسه منذ زمن بعيد ..

لاحظوا النص الثاني ، تجدون أروع مثال عن الجزع من الموت . هـــا هنا الصورة حقيقية تماما لان الموقف الذي رمز به الكاتب ، موقف نابع من الداخل ويجسد عذابا أليما ..

انه قلب يملك من الوحشة والندم واليأس مايملك الجيل العربي كله، وتبريره الوحيد ، انه من خلال هذا السواد وهذه الحلوكة الدكنـــاء تبرز أضواء صغيرة وبسيطة وصريحة ، لنفس ساذجة وعادلة ، تتمنى ان يكون البشر في الشرق العربي مالكين للخلال نفسها التي ملكهـــا الغرب مرة ، ثم طارت من يديه في النصف الاخير من القرن العشرين..

وانهـا لرغبة فينا مشتركة ، وحارة وأصيلة ..

ملاحظـات

« الرجل الزنجي » هو الحيوان الاقل نبلا في قلب كل واحد منا ، والاكثر ميلا الى سلوك الغاب ، غير المتحضر ، والحيواني للغاية ..

ان الرجل الزنجي لا يمكن ان يموت. انه يختفي احيانا،ولكنه خالد ابدا . انه موجود حيث توجد الرغبة . انه لايعرف القلق والحيـــرة والتساؤل، بل يصرخ ويهتف باستمرار : افعل ذلك .. افعل ذلك ..

وان اتفاقا مصطلحيا يقوم هنا بين الرجل الزنجي ، ورجل الالـــة . ان الزنجي يقول : احترم ارادتي ، وانا اعمل من اجلك ، اما الاخر ، والذي يحمل التوفز كله ، ويلاحظ هذا الصراع الارادي بين جانب فيه وبين العالم ، فهو يختم قلقه بهذا السؤال : « هل مات الرجل الزنجي ؟» .. ولكـــن هيهـات ..!

في « القبـو » تجري هـــذه المحادثـة :

ـ انت القاتـــل ..

ـ لم اقتله .. هل أقتل أبـي ..؟

ـ كلنا شاهدناك وانت تقتله ..

ـ اشنقـــوه ..

ـ اشنقـــوه ..

ـ اشنقـــوه ..

هذا الحلم هو التطهير الذي سوف يمنحه سلاما جديدا ، وهـــذا العقاب النفسي الذي عاناه الفنان ، ليس عقابا لجريمه اقترفها ، وهنـا الغرابة ، اذ كانت الجريمة مصورة في وعي الفنان ولم تحدث كفعل على الاطلاق : الغرابة ان الفنان يوافق على العقاب ، مع علمه بانه لم يقترف شيئا ، تماما مثل « جوزيف . ك . » : انه يتركهم يذبحونه بدون ان يعترض او يقول شيئا ، عالما تماما بانه لم يأت ذنبا ..

انها فرط رؤية الغرابة والاستحالة ، وهي على كل حال ، جواب مـن الاجوبة التي تطرحها الازمة ..

في « ابتسم ياوجهها المتعب » لم يستعمل البطل ، السكين التـــي أعطاها له الثري ، في القتل ، لانه لو كان استعملها ما أفصح عن غضبه الذاتي . لقد اصبحت جريمته الخاصة ، وله بعد ذلك حرية استعمال مايتراءى له . بل انه يرفض استعمال السلاح لانها لم تبق ، جريمـــة الرجل الثري ، وهذه لقطة بارعة وذكية للغاية ..

« رجل من دمشق » حاشدة بالسادية والماسوشية « فقد جعلني اغرق في احلام وتصورات عنيفة قاسية حزينة ولكنها لذيذة للغاية » « فلا بـد ان موتي سيكون مفاجأة مؤلمة لهم .. فأمي ستبكي وتولول .. » وذلك يقابل مأساة « بيتر كيرتن » السادي من دوسلدورف ، والذي كـــان يتجول في المدينة ، مفكرا بان عليه ان يدمر المدينة كلها بالديناميت ..

هذا الفسق المرضي الذي يبدو بريئا للغاية ، يعني ان ثمة انفصـــال حدث بين طبيعة المجتمع وحرية الكاتب .. جعلت البطل يكشف هـــذا الانفصال في صورة سحق للنقيض الذي يؤلمه ، والواقع الخارجي الذي لايتمم له أشواقه ..

حدث في « الكنز » انفصال اخر من نوع عجيب :

كل شيء مبرر طالما هو يحلم . الواقع صغير وباهظ : فيه الجـــوع والتشرد والقباحة والقذارة ، الحلم فقط هو غنى العالم واتساعـــه وروعته ، حيث تصبح كل رغبة مستجابة ، وحيث يضحى كل ألـــم منفيا : لا شيء الا الفرح ، ولا يفصل الانسان عن هذا العالم العظيم ، الا ستار غير شفاف مكون من العلاقات المادية الصغيرة التي تربطـــه بالاخرين ، فلننزع اذن هذه العلاقات ولنلق بها على الارض ، ولنسبح في روعة هذه الانطلاقية السحرية الى قلب ارض لاتعرف الحزن او اليأس او الموت .

الانفصال الذي تم ، هو انفصال بين ثلاثة عوالم : الاول هو الجســد المطروح بتأثير صدمة سيارة . الثاني هو النفس التي تبحث عـــن الذهب . الثالث هو المتشرد الذي يقتل ويضاجع ، وفي النهاية يحلم ايضا : « سأرجع الى البحر سمكة ضئيلة جميلة الالوان . » هذا الانفصال الثلاثي يعلن عن حاجة الى الارضاء تبطش بها هذه العودة الى الواقـــع وتسحقها « اذن لن يصنع امرأة من ذهب .. وسيغادر المستشفى قويـا كالحصان ... »

ياللمأســـاة ..!!

« قرنفلة للاسفلت المتعب » تنتهي بان يتمنى الكاتب ان ينام مئـــة سنة .. لا ان يموت ، بل ان ينام ثم يعود ، ليجد ارضه متغيرة، لكأنما قام برحلته الصغيرة الى جزيرة بعيدة ، تسبح فيها أسماك وأشرعـــة ملونة وتيارات هادئة .. ومرجانات تتألق على الشاطىء القرمزي فـي غسق الشمس .. انها أمنية لاتماثل الفرار ، بل تماثل الرحيل .. انهـــا رغبة عنيفة في رؤية وطنه عظيما ومتألقا ، وعاريا عن العذابات والبؤس الموجودة فيه ، ومأخذنا الوحيد على هذه الرغبة ، هي انها تماثل الـى حد ، نومة « اهل الكهف » هربا من انقسام العصر عليهم ..

*

في الخاتمة ، نلاحظ ان القمر هو الشاهد باستمرار ..

هذا المتطفل الحيادي العجوز ، ذو البسمة الحلوة ، والوجه الرائق ، هو الملاحظ الساكت الذي يفصح عن وعي ومهارة وذكاء نادر ، فلا هـــو يقترب من البشر بحيث تغشيه الامهم ، ولا هو يبعد عنهم كلية فيفقدون بابتعاده الامل والبراءة ، واحيانا اخرى يبقى الكورس الذي يعيد حس المأساة الى الانسان الذي ينسى وحدته بسرعة امام غروب او زرقـــة محيط ، او تخبط زورق سكران ..

لعله شاهد يعاني وحدتنا المريعة ، ولكنه شاهد يقظ ومجنون بحب الانســـان ...

القاهرة

محيي الدين محمد